من وإلى

كنت تكره كل تعال. فهمتَ مبكّراً لعبةَ اللامعنى التي تسكن الهرمية الاجتماعية. هناك هرميات أُخرى. هل تعلم ان الاوروبيين يستشهدون باعمالك بالذات كي يؤكّدوا تفوّقهم الفنّي دون بقية شعوب الارض؟ اية جريمة هذه حين يستخدمون عبقريتك لضرب كل ندّية في العالم

شوقي بن حسن

خطاب إلى بيتهوفن في نهايات عيده

الإرادة ضدّ سخرية الأقدار

كان يُفترض أن تكون حاضراً بيننا بقوّة هذا العام، فقد مرّت 250 سنة على ولادتك. لا يقع ذلك كلّ سنة. وقد تهيّأ لهذا الحدث مُحبّوك فخطّطوا لتظاهرات كثيرة تحمل اسمك، وندوات تدرس ما تركت لنا، وراجع العازفون مقطوعاتك فقد اعتقدوا أنهم سيعزفونها أكثر من أي سنة أخرى. ثم لم يقع من كل ذلك إلا القليل، فقد حرَم الوباء الناس من التجمّع معظم شهور العام، أليس ما حدث من «سخرية الأقدار»، الاسم الذي علق كعنوان شعبيّ - ربما دون رغبة منك - بسيمفونيتك الخامسة، غير أن الحسّ الشعبي محقّ إلى حد كبير، فضربات المدخل توحي بقهقهة لا تليق إلا بالأقدار. وأنت الوحيد الذي يسمع هذه الأصوات الخفيّة ويُترجمها في المحسوس. ثمّ ها أن ما يحدث في سنة عيد ميلادك الـ 250 شكل من أشكال سخرية الأقدار.

من حسن الحظ أن أعمالك متاحة في كل وقت. لا تحتاج إلى وساطة كي تبلغ الناس. لقد وجدت مكانها في كل المكتبات الصوتية، أوّلها يوتيوب الذي فرض نفسه، مع مواقع وتطبيقات أخرى، كمحامل لمعظم تراثك. لكنْ هل إن تراثك موسيقيّ فقط؟

شخصياً، لا أعتقد في ذلك، وأنا الذي تمنعني فروقات الثقافة والعصر من تذوّق الكثير من موسيقاك، ولا يزال كثير منها اكتشفه أو انتبه إليه من حين إلى آخر وكانك لا تتوقّف عن الإنتاج حتى بعد الموت. رغم ذلك، فأنت تسكن منطقة عميقة جداً في ذاتي، وأعتقد بأن هذه السكنى هي سرّك الأكبر. فأنت تسكن في نفوس أناس كثيرين منذ أن أطللت على العالم بفنّك؛ مؤلفاً موسيقياً. نعم. كشكل حضور بارز، ولكن أيضاً كثائر ضدّ التراتبيّات الواهية، وكصاحب إرادة جبّارة، وكمفكّر وإن لم تستعمل المفاهيم والنظريات، وقبل كل شيء - وببساطة - أنت تحضر في النفوس كإنسان، بل لعلّك منعطف في تمثّل مفهوم الإنسان، وفي هذا المقام أودّ أن يكون خطابي هذا.

سأصارحك بأمر، أنا ممّن لا يحبّ أن يترك مصادر ذاته عابرة طيّ بواطنه، ولذلك لديّ دفاتر أخصّصها لمَنْ أعتبرهم مصادر لذاتي، أتغذّى من إقامتهم في روحي وأسجّل وقع خطواتهم في عمري محاولاً إيامهم. معظم هؤلاء من الكتّاب، أي أن الحوار معقود بيننا عبر القراءة والنصوص؛ دوستويفسكي، هايدغر، أبو العلاء المعري، روسّو، غرامشي، نجيب محفوظ، وهناك بعض الاستثناءات من خارج دوائر الكتابة، مثل سيّد درويش وفيروز وسعاد حسني وأنت. أنت بيتهوفن. بل إن لك موقعاً متقدّماً بين هؤلاء، ولذلك لم أرد أن أفوّت ذكرى ميلادك الـ250 دون توجيه هذا الخطاب إليك. هذا نوع من الدَين النفسي تجاهك.

هل يوجد منطق لموقعك هذا في نفسي؟

لا أدري ولكني سأحاول. طبعاً لن أتناول موسيقاك بالتحليل حيث لا أتوفّر على المؤهلات التقنية لذلك، وإن كنتُ أشعر أن جوهرها يصلني، وهنا يكمن سر آخر من أسرارك حيث تجرّد أحاسيس دفينة كالحيرة والطموح والحب والثقة ثم تذوّبها في كؤوس موسيقية. ولذلك أنت رفيق مناسب لكل مغامرة، تعرف على أي الأوتار تضرب لتشحذ الهمم. ولقد فعلت ذلك بألمانيا في زمن تمزّقها، فكنت لحظة فارقة في تاريخها. أنت بهذا المعنى محرّر، يليق بك ذلك الاسم الذي أطلقته شعوب أميركا الجنوبية على محرّريها؛ ليبرتادور.

يُذكر كاتبو سيرتك كيف ثرت غضباً ومزّقت نوتات سيمفونيتك الثالثة، وكنت سمّيتها «نابليون» حين ظننته محرّراً، محرّراً للإنسان في مطلقه، فلما أعلن نفسه إمبراطوراً وبدأ يغزو جهات الأرض بشعارات «الثورة» قرّرت أن تُحذف اسمه بلا رحمة من تراثك. جرّدتَ نابليون من وسام الفن منذ عرفت أنه لا يستحقه، ثم عرفتَ لاحقاً أن لا أحد يستحق أصلاً أن تُشخّص القيم الكبرى فيه، فلم تقع في الخطأ مجدّداً على الرغم من أن كثيرين كانوا يرغبون في فيينا وفي الممالك الألمانية التي مررت بها، ويطلبون أن تشير إليهم في عناوينك وإهداءاتك.

> لا يمكن أن تنحصر اليوم في مجرّد تراث موسيقيّ
>
> فنّ متحرّر من رعاته بل متحرّر من ذائقة الجمهور أيضاً

إلى هؤلاء كنت توجّه نفس الخطاب الذي وجّهته إلى الأمير ليشنوفسكي حين حاول أن يتودّد لضبّاط فرنسيين بدعوتك للعزف لهم، فانفعلت وقلت: «أيها الأمير، ما لديك أتاك بفضل الولادة، أما ما لديّ فلا أدين به إلا لنفسي. الأمراء، وُجد منهم كثيرون ويوجدون وسيوجدون، ولكن لا يوجد إلا بيتهوفن واحد». هذه اللهجة من الندّية هي سرّ آخر من أسرارك. في فنّك، كنت تضخّ هذا المعنى فتجعله متاحاً لكل إنسان. نار مقدّسة تمدّها للفانين كأحد أبطال الميثولوجيا.

وكما تعلم، فإن معظم الأبطال يحتكّون بقسوة الوجود. كما لا يحتكّ بها غيرهم. ذلك حظهم في الحكايات كما في الواقع. ويا لها من قسوة أن من يُحكم على من صنعته الموسيقى وأصواتها الدقيقة أن يعيش نصف حياته أصمّ، رغم هذا القيد المؤلم، كنت تؤلّف أكثر فأكثر. بل استندت إلى إعاقتك تلك لتدخل مناطق لم يذهب صوبها أحد. باتت الموسيقى تدور في الذهن والقلب، قبل أن تصل إلى الأذن، بل لا يهمّ إن لم تصل إلى الأذن أبداً. هناك معنى تُطلقه ويعرف مستقرّه في النفوس، لأنه مركّب من الأبجدية الأولى التي تخلّصت من كل ما اصطنعته المجتمعات. كم كان الشاعر الفرنسي فيكتور هوغو قريباً من الدقة حين قال: «هذا الأصم يستمع إلى اللانهائي». تحوّلت اللعنة-المؤامرة إلى ألحان ضاربة في الروح، متدفقة، سوناتا ضوء القمر تحدّثنا عن ذلك بشكل هامس في حركتها الأولى وبكل حدّة وصخب في الحركة الثالثة، أو نشيد الفرح في رابع حركات سيمفونيتك الأخيرة، وهي تتحدّث باسم البشرية جمعاء.

بمناسبة ذكر هذه الأعمال، كيف تحضُرك مشاريع بهذا الحجم. يقال إن قمم الموسيقى الأوروبية ثلاث؛ باخ وموزار وأنت. كان مشروع الأول التعبير عن المقدّس عبر الموسيقى، وقام الثاني بالتعبير عن عظمة الطبقة الأرستقراطية في زمنها الذهبي، وكان هناك في كلا الحالتين طلب واضح لإنجاز هذين المشروعين. لكن مشاريعك تذهب باتجاه آخر. لا أحد يطلبها. إنها مشاريعك أنت وحدك، مشاريعك التي تلتقطها من أعماقك. ومن أعماق الجنس البشري. ولذلك هي لكل البشر.

بيتهوفن شابا. رسمة من نهايات القرن الثامن عشر (Getty)

السيمفونية الأولى

للكاتب المصري حسين فوزي عمل يمكن اعتباره المرجع الأبرز عربياً في قراءة تجربة بيتهوفن، حيث يحلّل بشكل مبسّط، ولكن عارف بتاريخ الموسيقى، أهم أعماله، ومن أطرف ما جاء فيه تحليلُه للسيمفونية الأولى التي يقول عنها بأنها تبدو عملاً غير مكتمل لشاب طموح، لكنها في الحقيقة علامة موسيقية لامعة. من سوء حظها أنها لفنان مثل بيتهوفن لا يقبل إلا أن تتجاوز أعماله الجديدة كل منجزه السابق مهما كان متقناً.

حصاد 2020

فلسطين تحت وطأة وباءين

عام للخذلان والجائحة

الجائحة التي ضربت بضبابها الأسود معظم شهور 2020 ليست غير ذريعة إضافية لتفسير النكوص والارتداد على صعيد الثقافة في فلسطين

أمير داود

ما زالت الساحة الثقافية الفلسطينية تراوح مكانها، الانشغالات الثقافية ذاتها، وهمومها الكبرى لم تتجاوز همّ الوجود الذي يأخذ طابعاً هوياتياً بدائياً، وكذلك الأسئلة إياها. لا جديد يذكر ولا قديم يُعاد في دوّامة الهزيمة ذات الرأسين التي تعيشها الساحة الثقافية هذه الأيام، هزيمة وطنية ترزح تحت الاحتلال وتتآكل أمام ضرباته المتواصلة التي تمثّلت أخطاره مرّة بالاستيلاء على الأرض بـ«الصّم» (وعليها أن تُقرأ «القضم») ومرة بانكشاف ظهره بموجات التطبيع العربية الأخيرة، وهزيمة صحّية تحت وطأة الجائحة ما زالت دوامة أسئلتها تطنّ في كل مكان.

قد تبدو الجائحة التي ضربت بضبابها الأسود معظم شهور العام 2020 ذريعة ذات قدرة كبيرة على الحمل لكثير من أسباب النكوص والارتداد على صعيد الثقافة في فلسطين، إذ إن معظم مؤسسات الثقافة التي انشغلت بتقديم برامج ثقافية تقوم على فكرة حضور الجماهير قد أقفلت أبوابها مطلع هذا العام، قبل أن تأخذ برامج مثل سكايب وزووم وغيرها من برامج التقانة الرقمية عالم الناس وحياتهم وتستعيض عن الحضور إلى القاعة فكرة المشاهدة والمشاركة من المنزل.

لم تعوّض هذه البرامج كارثية انغلاق الأبواب على صدى صيحات «ابقوا في بيوتكم واحفظوا سلامتكم» وحسب، بل تسبّبت هذه البرامج، وفي كثير من المناسبات، باستسهال إقامة المؤتمرات والندوات عبرها، وهي الفعاليات التي، في كثيرها، حملت الرثّان من العناوين والهائل من الشعارات دون إضافة معرفية تذكر أو إزاحة ولو حتى طفيفة على صعيد المخرجات أو المعالجات التي يبدو أن أحداً لم يطالب أو يسائل منظّميها عن نتائج أو مجريات ما تم تنفيذه هنا وهناك.

إلا أنه وبالرغم من فداحة العناوين الكبيرة وضآلة مخرجاتها، فإنّ ما بات يعرف بتقانة الفعالية الثقافية أو الفعاليات الثقافية عبر الفيديو، مكّنت أو دفعت بالفعل الثقافي بكل مكوناته إلى مساحات أكثر رشاقة جعلت من فكرة مناقشة كتاب أو قضية أو حشد رأي حول حادثة أو مسألة أكثر سلاسة من إجراءات ما قبل الجائحة وبالتالي تبدو الوسيلة الجديدة واعدة بالرغم من استسهال كثير من مؤسسات لها.

لم تتوقف آثار الجائحة عند إغلاق المراكز الثقافية وحجب التجمهر والفعاليات وتحديداً تأجيل إقامة معرض الكتاب الفلسطيني، بل تعدّتها إلى تأجيل إصدار الكثير من الكتب وانسحاب وصول الجديد منها إلى الأرض المحتلة بفعل إغلاقات الطوارئ والحجر الصحّي الذي رافق إعلان حالات الطوارئ في معظم بلدان العالم وتحديداً المجاورة منها، الأمر الذي أحال اللحظة الثقافية في إحدى ذروات الجائحة إلى لحظة صفرية متوقفة قبل أن تعود العجلة إلى الدوران ولو ببطء شديد.

كانت الثقافة الفلسطينية، في بعديها العملياتي والحفري، قد راوحت مكانها في عام الجائحة هذا، وهو العام الذي كان حرياً بالثقافة، لا أن تقدم إجابات، إذ إن الثقافة لا تقدم أجوبة بقدر ما تطرحها بالحفر عميقاً في زوايا مفاجئة تماماً، بل غاب عنها في كثير من أوقاتها منطق المساءلة والمحاججة والتناول من الزوايا الجديدة التي تضيء وتكشف وتجعل من العام الفائت، على سوداويته وغموض مآلاته مسألة للتأمل وسحب مربعات جديدة تقارب الجائحة بالتاريخ مرة، وبالوقائع مرة، وبالاحتلال الجاثم على صدر الشعب مرات، لكن ما يشفع لعدم نضوج التجربة هو أن الجائحة لم تسقط بعد عن ظهر الواقع حتى يتم هضمها أدباً في كل الأحوال.

ثمة بقعة ضوء تمثلت في موقف شريحة واسعة من المثقفين من التطبيع العربي، ضمن مواقف رافضة وبيانات اعتراض وانسحابات متتالية من «جائزة بوكر العربية» لحظة الإعلان عن مرحلة التطبيع الإماراتي الإسرائيلي من مثقفين عرب وفلسطينيين على وجه الخصوص وهي الجائزة التي شارك فيها فلسطينيون كثر، سواءً فائزين أو ضمن لجان تحكيم أو كمراقبين أومتقدمين لها على مدار أعوامها الماضية.

> لم يخرج المثقف من دوائر الشعور بالخذلان نحو موجات التطبيع

لا تتجاوز ردة فعل المثقف الفلسطيني على موجات التطبيع العربية، إياها، دوائر ضيقة من شعور بالخذلان وسرديات الخديعة والدهشة، هذا ما كشفت عنه مواقف وبيانات وردود فعل، لا التاريخ يسعفه في مطالعة تواريخ انتهاء الدهشات، ولا كثرة جحور الطريق تجعله يكتفي بالجحر الثاني الذي لا يُلدغ المؤمن منه، ويتوقف عنده بالضرورة. لا يقارب المثقف الفلسطيني مأساة الخديعة بملهاة الخلق الجديد والانطلاق والبناء، بل يتوقف هناك، يتوقف هناك مطولاً، ليأخذ العام 2020 فلسطينياً، عنواناً أثيراً مرة أخرى: إنه عام للخذلان والجائحة.

هاني زعرب. تفصيلة من لوحة قيد العمل

معرض

دون مكولين فوتوغرافيا القسوة الدائمة

رائحة الفقر والجوع والحروب

يضم المعرض المقام حالياً مئتين وخمسين صورة التقطها المصوّر البريطاني أثناء تغطيته حروب سورية وفيتنام ولبنان وغيرها

لندن ـ **العربي الجديد**

قبل أن يبلغ السادسة، تفرّقت عائلة المصوّر الصحافي البريطاني دون مكولين (1935) مع اندلاع الحرب العالمية الثانية بين عدّة مدن في بلاده، حيث قضى أشهراً بلا استحمام وأياماً دون طعام، وما إن انتهت العمليات القتالية، اعتقد أن عليه الاستعداد لما أسماه «القسوة الدائمة»، حيث رائحة الفقر تشكّل الذكريات الأولى لطفولته. الطفل الذي عانى عسر القراءة، أُجبر على مغادرة المدرسة في الرابعة عشرة من عمره بسبب رحيل والده الذي كان مصاباً بالربو، والتحق بالجيش البريطاني حيث جُنّد في منطقة قناة السويس، وهناك رأى سفن دول أوروبية تؤوب إلى بلدانها عقب الثورات التي حقّقت الاستقلال في مستعمراتها، وعاد بعدها إلى لندن حيث استطاع بعد عامين أن يبيع أول صورة له بخمسين جنيهاً، وتبدأ بعدها رحلته الطويلة مع الصورة والحروب. حتى التاسع من أيار/ مايو المقبل، يتواصل معرضه الجديد في «متحف تيت» بمدينة ليفربول البريطانية والذي افتتح في منتصف أيلول/ سبتمبر الماضي، ويتضمّن المعرض حوالي مئتين وخمسين صورة التقطها مكولين أثناء تغطيته الحروب والنزاعات في بلدان عديدة مثل سورية وفيتنام ولبنان وأيرلندا الشمالية والهند ودول أفريقية على مدار ستين عاماً. كانت أولى صوره المنشورة لشرطي بريطاني قتلته إحدى العصابات، ثم ذهب إلى برلين عام 1960 ليلتقط هناك صور إنشاء السور الذي فصل بين عالمين لنحو ثلاثة عقود، حيث حقّقت تقاريره المصوّرة انتشاراً واسعاً آنذاك، لكنه سينال مزيداً من الانتشار مع نشر مقالاته حول عمّال الصلب في بلدة هارتلبول البريطانية؛ القضية التي شكّلت محور اهتمامه خلال الستينيات والسبعينيات حين فقد آلاف العمّال في المصانع وظائفهم بسبب السياسات الرأسمالية المتوحشة، والتي يوثّقها المعرض في عدد من الصور. في تلك الفترة أيضاً، سيغطي مكولين الحرب الأهلية في قبرص، كما سيذهب إلى الكونغو متنكراً بزي أحد المرتزقة الذين شاركوا حينها في الاقتتال الداخلي بعد استقلال هذا البلد الأفريقي عن بلجيكا، وأودى بحياة أكثر من مئة ألف كونغولي، ومنها انتقل إلى فيتنام عام 1965 موثقاً الفظائع التي ارتكبها الأميركيون في خمس عشرة زيارة خلال الحرب التي استمرت عشرين عاماً. لم يخف المصوّر صاحب كتاب «بيروت: مدينة في أزمة» (1983) انحيازاته السياسية وتضامنه مع العديد من القضايا، التي يقرّ بأنه لم يع حقيقتها قبل أن يرصدها بكاميرته، ومنها استغلال سكان الأمازون الذين يعانون من التهميش الاقتصادي والقطع الجائر للغابات التي يسكنونها، ما يؤدي إلى تهجيرهم قسراً عن أرضهم. هكذا تمثّل أعماله الفوتوغرافية بانوراما ممتدّة ومثقلة برائحة البارود والمجاعات والأوبئة والنزوح، والتي تركت أثرها في أكثر من محطّة خلال حياة مكولين وأدت إلى توقفه عن العمل فترات، حيث يتابع زوّار المعرض صورة لرجل من زيمبابوي مصاب بالإيدز وهو يحتضر، وأخرى للأحياء التي دمّرها قصف النظام السوري في مدينة حمص، وثالثة لشبان ينتمون إلى «حزب الكتائب» وهم يبتهجون ويحتفلون لمقتل فتاة فلسطينية خلال الحرب الأهلية اللبنانية.

> سجّلت عدسته الموت والجوع والأوبئة من فيتنام إلى سورية

امرأة تركية لحظة سماعها نبأ مقتل زوجها في الحرب الأهلية القبرصية (من المعرض)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

يتواصل **معرض القاهرة للفنون**، المقام حالياً في «غاليري تام» في العاصمة المصرية حتى 31 كانون الثاني/ يناير، بمشاركة 140 فناناً مصرياً حيث يجري عرض أعمالهم بين لوحات وتجهيزات وأعمال كولاج، وتتنوع المنحوتات بين الكلاسيكية والتجريبية والمعاصرة، باعتماد خامات متنوّعة من الرخام إلى الاسلاك.

تحت عنوان **فن النصر**، يتواصل معرض الفنانة اللبنانية **سمر مغربل** في «غاليري صالح بركات» في بيروت، حتى نهاية كانون الثاني/ يناير المقبل، ويتضمن سلسلة منحوتات منجزة من الأنابيب الملحقة بالسيارات، ترمز الفنانة من خلالها إلى النظام الذي يعالج النفايات ويزيلها، وتسلّط الضوء على إرهاق الحياة في بيروت اليوم ونضوبها في أعقاب الأزمات المستمرة بشكل مجازي.

يتواصل معرض الفنان البريطاني **أوبري بيردسلي** في «متحف أورساي» في باريس، حتى العاشر من كانون الثاني/ يناير المقبل وهو معرض يقام بمناسبة مرور 120 عاماً على وفاة الفنان، وهو واحد من معارض كثيرة احتفت بتجربة بيردسلي في لندن وباريس وغيرها من العواصم الأوروبية، لكنه أول معرض استعادي له في فرنسا.

يلقي المعماري **إيهاب ماهر**، محاضرة افتراضية عند السابعة والنصف من مساء الثلاثاء، 5 كانون الثاني/ يناير المقبل، تحت عنوان **مدخل لفهم الأبنية الذكية**، بتنظيم من مجلة «يم آرايا» المتخصصة في العمارة وتصدر في الدوحة. يتناول ماهر تاريخ الأبنية الذكية وفهم العلاقة بينها وبين الاستدامة.